الأعداء

قصة بقلم زكريا تامر

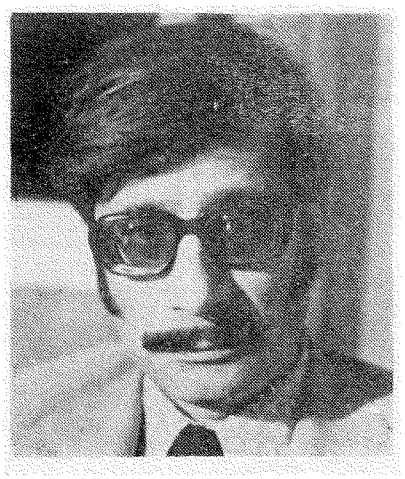

١ ـ البداية .

نفخ الشرطي في صفارته ، فبزغت توا شمس الصباح ، وأضاءت شوارع المدينة بنور اصفر كالخشاب مشنقة عجوز .

وعندئذ افاق الناس من نومهم العسفين عابسي الوجوه .

٢ ـ السماء المفقودة

حط عصفوران على غصن شجرة من الاشجار المنتصبة على جانبي احد الشوارع ، ولم يفردا مرحبين بشمس الصباح انما تبادلا النظرات الوجلة الحائرة ، وقال احدهما للآخر: « اين نطير ؟ » .

« ـ سماؤنا احتلتها الطائرات » .

« ـ لم يبق لنا سواء سماء الافخاص » .

« ـ سنفقد أجنحتنا » .

« ـ سننسى الغناء » .

وحدق العصفوران الى طائرة سوداء تعبر السماء بسرعة خاطفة، ثم تبادلا ثانية النظرات الوجلة، وبدت لهما المدينة فما شرها ذا انياب، فابتلعا حبوبا منومة ، ثم سقطا ميتين على رصيف صلب من اسمنت.

٣ ـ الاسرى

يمشي رجلان عجوزان على رصيف شارع بخطى وئيدة ،ويتحدثان بكآبة :

« ـ هذا الزمان آخر زمان » .

« ـ الحال من سيىء الى أسوأ » .

« ـ حان وقت كتابة العريضة » .

« ـ أي عريضة ؟ » .

« ـ العريضة التي ينبغي رفعها الى الله عز وجل » .

« ـ وماذا سنكتب في تلك العريضة ؟ » .

« ـ سنكتب ما يلي : نحن الموقعين ادناه نلتمس من سيد الكون ان يرسل الينا جيشا من ملائكته مسلحا بأحدث الاسلحة على ان يقيم على حدود البلاد ويقاتل الاعداء ولا يعاملنا كاسرى » .

« ـ وماذا نفعل في حال عدم تنفيذ طلبنا ؟ » .

« ـ نرفع عريضة ثانية نطلب فيها المواظفة على اعفائنا من الصلوات الخمس » .

« ـ واذا لم يوافق ؟ » .

« ـ بل سيوافق ايضا على اعفائنا من الصوم . انه رؤوف رحيم » .

٤ ـ الثأر

ثمة عدد من الاولاد مجتمعون في باحة المدرسة ، يلعبون بحماسة لعبة جديدة .

« ـ انا طرزان » .

« ـ أنا عنتر » .

« ـ انا مليونير » .

« ـ انا مخترع القنبلة الذرية » .

« ـ انا غوار الطوشه » .

« ـ انا شرطي » .

« ـ انا مخترع الطائرات » .

فانقض الاولاد على مخترع الطائرات وراحوا يصفعونه ويلكمونه ويركلونه بينما كان يصرخ معولا مستغيثا .

٥ ـ رجال

« ... الحمد لله الذي خلقنا رجالا نركض ساعة الخطر الى امام كالريح ، فننجو ولا نهلك .

والحمد لله الذي لم يخلقنا نساء نقعد في البيوت فتحرقنا قنابل الاعداء وكأننا الجوارب العتيقة .

الحمد لله الذي لا يحمد سواه ... » .

٦ ـ الخطر

سئل فلكي عما سيأتي به المستقبل ، فقال دونما تردد : « سيهلك الكبار . سيهلك الصغار . ستهلك القطط والطيور والازهار . ستحرق البيوت والكتب والرايات . ستحرق مقاعد المدارس والصور التذكارية. سيمحو النابالم الضحكات واللغة العربية والسنابل . ستهدم المستشفيات . ستهدم المصانع . ستهدم الحدائق . ستسير النساء في الشوارع دون ملاءات » .

ولما نشرت تلك النبوءة مفصلة في كتاب ، اتفق المخلصون للوطن على استنكار ما سيحل بالمرأة ، وتنادوا الى التضحية بالنفس والنفيس لدرء ذلك الخطر البشع .

٧ ـ الجنة

كان الرجال الموشكون على اداء الصلاة ، متحلقين بلهفة حول شيخ المسجد، وقد سأل احد الرجال الشيخ بصوت متهدج : « أتوجد يا شيخنا طائرات في الجنة ؟ » .

فقال الشيخ : « لا وجود للطائرات في الجنة » .
فتنهد الرجال بارتياح ، وقالوا بفرح : « الحمد لله » .

٨ ـ خطبة

« .. والله ما كان سكوتنا على الاعداء عن ضعف انما كان اباء وشمما وترفعا وثقة بالنفس .

فالوا : نريد بترولكم . قلنا : خذوا بترولنا ، فنحن احفاد حاتم الطائي . قالوا : اعلنوا حربا شعواء على الافكار المستوردة . فقلنا : نحن اهل الكر والفر ، ونصبنا المشانق وشيدنا السجون .

أرادوا الاستيلاء على مدينة ، فأعطيناهم مدنا ومدنا كي نبرهن على اننا لا نبالي بهم ، فاذا كانوا يملكون الطائرات والقنابل ، فنحن نملك الخلق القويم والمبادىء السماوية ، وشتان بين ما يملكون وما نملك ، فنحن الاقوياء لاننا مسلحون بالروح والحق لا بالمادة الزائلة والباطل الزهوق ... » .

٩ ـ وسام للمنقذ

ظفرت اللغة العربية بأرفع وسام في الوطن لاسهامها في تحويل هزيمة حربية الى نصر ، فهي اسمت الحرب انسحابا ، واسمت الانسحاب صمودا ، وأسمت الصمود بطولة ، وأسمت البطولة نصرا .

ولقد انتصرنا على الاعداء ، وسننتصر ايضا على طابورهم الخامس الذي يتجاهل وحده الطاقات القتالية للغة العربية .

١٠ ـ لماذا ؟

سأل التلميذ معلمه : « ما الفارق بين الحيوان والانسان ؟ » .
فقال المعلم للتلميذ : « الحيوان لا يتكلم والانسان يتكلم » .
لم يكذب المعلم ، ونحن العاملين في الاذاعة والتلفزيون والصحف خير من تكلم .

فالى خالق السموات والارض الذي منحنا الالسنة ، نقدم الشكر والامتنان ، ففوائد الكلام لا تحصى ، ويوم حاربنا الاعداء ، قام كلامنا بدور مشرف ، فجابه الاعداء بشجاعة ، وأسقط طائراتهم ودمر دباباتهم وأباد جنودهم .

فلماذا حدث ما حدث وحلت بنا الهزيمة مع ان كلامنا جاهد جهاد الابطال ؟..

١١ ـ محو الفقراء

جاع المواطن سليمان القاسم ، فأكل جرائد زاخرة بمقالات تمتدح نظام الحكم ، وتعدد محاسنه المتجلية في محو الفقر .

ولما شبع ، شكر الله رازق العباد ، وآمن ايمانا عميقا بما قالته الجرائد .

١٢ ـ برنامج اذاعي

مذيع : « ما اسمك يا اخ ؟ » .
شاب : « عبد المنعم الحلبي » .
مذيع : « متزوج ؟ » .
شاب : « عازب » .
مذيع : « ماذا تشتغل ؟ » .
شاب : « انا بلا عمل » .
مذيع : « ولماذا لا تعمل ؟ أأنت غني ام تكره العمل ؟ » .
شاب : « لست غنيا ولا أكره العمل . اني ابحث عن عمل منذ سنوات » .
مذيع : « ما هي الامنية التي تتوق الى تحقيقها ؟ » .
شاب : « ان اموت الآن » .

مذيع : « ايها الاعزاء المستمعون . لا ريب في ان الاخ عبد المنعم الحلبي وطني غيور ، فهو كما تلاحظون حين يتمنى الموت يرغب في معاقبة نفسه لانه لم يسهم في بناء مجتمعنا المتطور السائر الى الامام » .

١٣ ـ الابناء

سأل طفل صغير السن أمه : « ما الفائدة من العينين ؟ » .
فتجهم وجه الام ، وقالت وهي تنظر الى طفلها بريبة وحذر : « العينان خلقتا لتنظرا باحترام وحب الى صور زعماء البلاد » .
قال الطفل : « والاذنان ؟ » .
قالت الام وقد تزايد خوفها : « الاذنان تسمعان الاوامر الرسمية والخطب السياسية » .
قال الطفل : « واللسان ؟ » .
قالت الام : « اللسان لا فائدة له سوى المساعدة على ابتلاع الطعام بعد أن تمضغه الاضراس والاسنان » .
فابتسم الطفل ابتسامة غامضة بينما كانت الام ترتعد خاضعة لرعب قاس .

١٤ ـ البطل

مذيعة تلفزيونية : « هل تسمح يا استاذ خالد بن الوليد بأن تشرح للاخوة المشاهدين كيف صرت بطلا شهيرا ؟ » .
خالد بن الوليد : « لقد صرت بطلا بفضل ملح اندروس الفوار ، ففي كل صباح كنت أشرب كوب ماء بعد أن اذيب فيه ملعقتين من ملح اندروس . فملح اندروس كما يعلم القاصي والداني ينشط الكبد وينظف الامعاء ويقوي الجسم وينعش العقل » .

١٥ ـ الحب

« فتش كما تشاء يا سيدي الشرطي ، فامرأتي ليست مطبعة تطبع المنشورات السياسية الهدامة ، وضحكها ليست مؤامرة استعمارية ، ولا يمكن أن نفسر على أنها نقد مباشر لنظام الحكم خاصة واني قبل أن أحبها ، سألتها عن رأيها بنظام الحكم السائد حاليا في البلاد ، فأجابت فورا بأنها تحبه حبا جما ، وعندئذ فقط سمحت لقلبي بأن يعشق تلك المواطنة الواعية .

ولما قبلتها لاول مرة أربعشنا معا مبتهجين وكأننا كنا نصفق ونهتف في مسيرة مؤيدة لكفاح الشعوب .

فهل تريد يا سيدي الشرطي اخلاصا للوطن اكثر من اخلاصنا ؟! » .

١٦ ـ الجريمة

انا مواطن لا أختلف عن غيري من المواطنين الموزين ، ثيابي كثيابهم ، ومعدتي كمعدهم ، وأخاف كما يخافون .

وعندما منحتني الدولة شرف العمل في مصنع تملكه ، لم ادرك قيمة ما منحت ، وطالبت بعد اشهر قليلة بزيادة أجري متجاهلا ما تتطلبه المعركة ضد الاعداء من اموال ، ومخالفا الاوامر الرسمية بوجوب التقشف ، ولم أتنبه الى مدى الضرر الذي سينزل بالوطن اذا ما لبى طلبي ، فلو كنت قد حصلت على زيادة أجري ، فلسوف ينقص مال الدولة ، واذا نقص مال الدولة ، فسينقص ما يدفع ثمنا للويسكي ونياب النساء والسيارات والابنية ، واذا قل الويسكي وزعلت النساء وغدت السيارات والابنية غير فخمة ، فمن المؤكد تاريخيا وموضوعيا ان فرح المسؤولين عن البلاد سيتضاءل ، واذا تضاءل فرح المسؤولين فستصبح معنوياتهم خائرة ، وتصير بياناتهم وتصريحاتهم وخطبهم فاترة مملة لا ترعب الاعداء . ولذا فحين طالبت بزيادة اجري ، خدمت الاعداء وشاركت في انجاح حربهم النفسية .

اذن فلأعاقب شر عقاب .

ملاحظة : « هذا الوعي المباغت الذي امتلكته لا علاقة له البتة بالمنادي الى مخفر الشرطة ، اذ لم أسأل هناك الا عن اقتراحاتي الرامية الى تطوير الانتاج » .

١٧ ـ اولو الامر

اتكأ الشرطي بمرفقيه على سور النهر ، وصاح بصوت خشن صارم : « ايها النهر » .

« ـ من يناديني ؟ » .

« ـ انا الذي اناديك » .

« ـ من انت ؟ » .

« ـ انا شرطي » .

فارتجفت مياه النهر ، واضاف الشرطي قائلا : « اذا اردت الا تطرد وتحيا بقية عمرك في منفى ، فعليك ان تتعهد خطيا بعدم التدخل في الشؤون السياسية » .

« ـ ولكن الوطن وطني » .

قال الشرطي بلهجة جافة : « هل تريد ان تسجن ؟ » .

فبادر النهر الى تنفيذ رغبة الشرطي ، معلنا الولاء والطاعة لاولي الامر .

١٨ ـ في سبيل وطن يسر السياح

الى من يهمه الامر :

نحن المخلوقات البشرية الرثة التي تقطن في الازقة الضيقة المظلمة ، نطالب بما يلي :

١ ـ ان يسمح لنا بالسير عراة توفيرا لثمن الثياب ، ولكي يتاح لاجسادنا الحصول على النور والهواء .

٢ ـ ان تقوم المستشفيات الحكومية مجانا باستئصال معدنا التي تسبب لحياتنا اضطرابا لا مبرر وطنيا له .

٣ ـ ان تقطع رؤوسنا بعد ان ثبت لنا ان ما يجعل المواطن خائنا هو العين التي تبصر والاذن التي تسمع واللسان الذي يتكلم والعقل الذي يفكر والعقل الذي لا يفكر .

١٩ ـ اصفاد الموتى

يروى ان رجلا عشق امرأة ، ولكنها ابت الزواج منه ، فقال لها متسائلا بدهشة : « كيف ترفضين الزواج مني مع انك تقولين لي دائما بأنك تحبينني ؟ » .

قالت المرأة : « انا احبك ولكنك من اسرة لا تدفن الموتى من اجدادها ، فكيف تريد مني ان احيا معك في بيت غرفة مليئة بالجثث ؟ » .

ففكر الرجل هنيهات ثم قال : « انت محقة فالموتى لهم المقابر لا منازل الاحياء » .

وبادر الى حفر حفرة عميقة كي يدفن فيها جثث اجداده ، غير ان اشباح الاجداد والاعداء اوثقته بالاصفاد ودفنته في الحفرة التي سبق ان حفرها .

لم تبك المرأة ، انما شحذت سيف رجلها ، وانتظرت عودته دونما يأس كي يحارب الاجداد والاعداء .

٢٠ ـ الشموس والاقمار

الجبان الحي خير من الشجاع الميت ، فقبل اليد القوية وادع في السر ان تكسر ، واذا اردت مطلبا من كلب فقل له : مولاي الكلب .

كن أول من يطيع وآخر من يعصي ، فلا رأي لمن لا يطاع ، واذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، والقناعة كنز لا يفنى ، والحسود لا يسود ، فاستقم كما أمرت واطع اولي الامر ، وكل من سار على الدرب وصل .

٢١ ـ الصغار يضحكون

شاهد الملك يوما عددا من الاولاد يلعبون في احد الحقول ويضحكون بمرح ، فسألهم : « لماذا تضحكون ؟ » .

قال واحد الاولاد : « انا اضحك لان السماء زرقاء » .

وقال ولد ثان : « وانا اضحك لان الاشجار خضراء » .

وقال ولد ثالث : « وانا اضحك لان العصافير تطير » .

فنظر الملك الى السماء والعصافير والاشجار ، فالفاها لا تضحك ، فاقتنع بأن ضحكات الاولاد لا هدف لها سوى النهزء من هيبته الملكية ، فعاد الى قصره ، وأصدر أمرا بمنع اهل مملكته من الضحك ، فأطاع الناس الكبار السن وكفوا عن الضحك ، غير ان الاولاد الصغار لم يبالوا بأمر الملك وظلوا يضحكون لان الاشجار خضراء والسماء زرقاء والعصافير تطير .

٢٢ ـ الرشوة

عقد رجال الحارة اجتماعا تحدثوا فيه عن امور الدين والدنيا ، فسارع رجل ذو لحية بيضاء يقول لهم بلهجة مؤنبة : « لم يهزمنا الاعداء في الحرب الا لاننا ابتعدنا عن ديننا الحنيف ، واعلموا ان تلك الهزيمة عقاب وانذار ، عقاب لما ارتكبتم من ذنوب ، وانذار بمستقبل حافل بالويلات والكوارث » .

فصاح واحد من اهل الحارة : « ماذا نفعل ؟ ارشدنا » .

قال الرجل الملتحي : « عودوا الى دينكم نادمين تائبين طالبين الغفران وحسن الختام » .

قال رجل : « ولكننا نصلي ونصوم ولا نؤذي احدا ونذكر الله صباح ومساء » .

قال الملتحي : « ما تفعلونه لا يكفي ، يجب أن تبنوا مسجدا تعلو فيه كلمة الله » .

« ـ ولكن بناء المسجد يكلف اموالا كثيرة ، ونحن فقراء » .

قال الملتحي بنزق : « الويل لكم . أتعتذرون عن بناء المسجد متذرعين بحجج واهية بينما تنفقون ما تكسبون من اموال في سبيل حياة فانية ؟! بئس المصير لمن فضل الحياة الدنيا على رضى الله » .

فنكس الرجال رؤوسهم خجلين .

وجاع اهل الحارة زمنا طويلا ، ولكنهم بنوا مسجدا له مئذنة تشبه رمحا غاضبا يوشك ان يندفع عبر الفضاء ليثقب طائرات الاعداء .

٢٣ ـ التحقيق

قال المحقق لطفل في المهد : « اياك والكذب . قل كل ما تعرف عن رفاقك » .

لم يجب الطفل ، فاستاء المحقق ، وقال للطفل بلهجة حانقة : « أتجرؤ على رفض الكلام ؟ » .

بكى الطفل ، فتزايد غضب المحقق ، وأمر باستدعاء رجاله ، فاقبلوا حالا حاملين السياط والليل أليت النجوم .

٢٤ ـ الوصية

كان الرجل الهرم الذي يحتضر ، يتحلق حوله العديد من ابنائه واحفاده الحزانى ، وقد تأمل بعينين مجهدتين وجوههم الصفراء وثيابهم المهترئة ، وقال لهم بصوت خفيض مرتعش آسف : « سأموت دون أن اترك لكم ما ينفعكم » .

وهم بمتابعة كلامه ولكن اعياء حادا مباغتا داهمه وارغمه على السكوت ، فأغمض عينيه وهو يرتجف متلهفا الى ان يقول لابنائه واحفاده : « الحياة يا اولادي واحفادي غريبة ، فافعلوا كل ما هو سيىء مشين ، عيشوا فسادا في الارض . لا تقولوا الصدق ولو كانت

انشوطة المشنقة تهمّ بحصد رؤوسكم . اكذبوا ، تملقوا الاثرياء وذوي المناصب ، تملقوا التافه والضحل والاجوف والمهرج فالمستقبل الوضاء لهم لا لغيرهم . صفقوا للوافد الجديد الصاعد واشتموا الراحل الآفل . اسكروا . لا تصلوا . لا تصوموا . لا تحسنوا الى احد . كونوا اليمين واليسار وكونوا الشرق والغرب . احتقروا الكتب فابتسامة مسؤول افضل من الف كتاب . حاربوا الضعيف المعوز ، وناموا اذلاء على اعتاب القوي القادر . امدحوا من لا يستحق المديح. صفقوا اعجابا بنباح الكلاب ، واقرعوا الطبول كي لا يسمع تغريد البلابل » .

وخضع الهرم المحتضر لحقد عاصف ، فحاول ان يصرخ معلنا ما يرغب في قوله ، ولكن الموت اقبل في تلك اللحظة ، فصمت المحتضر مفعما بالمرارة والاسف .

٢٥ ـ النهاية

قال المعلم لتلاميذه الصغار : « السنة كما اخبرتكم سابقا تتالف من اربعة فصول ، فما هي ؟ » .

صاح التلاميذ : « الخريف » .

قال المعلم : « في الخريف تصفر اوراق الاشجار وتحرث الارض وتفد الغيوم » .

جاء الخريف ، واصفرت اوراق الإشجار ، ثم تساقطت لتغطي جثث من قتلوا في الحرب ولم يدفنوا في قبور .

صاح التلاميذ : « الشتاء » .

قال المعلم : « في الشتاء ، تهطل الامطار وتروي التراب » .

جاء الشتاء ، فاذا حطام طائراتنا ورجالها الموتى الابرياء يذوبون في التراب هطلت فوقها الامطار الغزيرة .

صاح التلاميذ : « الربيع » .

قال المعلم : « في الربيع يعمّ اللون الاخضر » .

جاء الربيع ، واكتست الارض بالعشب الاخضر والازهار ، ولكن الامهات والمدن ظلت مرتدية ثياب الحداد .

صاح التلاميذ : « الصيف » .

قال المعلم : « الصيف موسم الحصاد » .

جاء الصيف ، ولكن الارض لن تنبت سنابل قمح ، انما ستنبت طائرات جديدة ورجالا توّاقين الى موت ثان .

٢٦ ـ النهاية

اغمد رجل نصل مديته حتى المقبض في التراب بحركة متشفية ثم ألصق اذنه بالارض ، وهتف بدهشة : « الارض تبكي » .

ثم ألصق اذنه بالارض ثانية ، وصاح بصوت مثقل بالفرح : « لقد ماتت » .

وحين ألصق اذنه بالارض مرة ثالثة ، لم يسمع سوى احذية الجنود تصك الارض برتابة .

دمشق — زكريا تامر

روايات ومسرحيات مترجمة

من منشورات دار الآداب

ابك يابلدي الحبيب	آلان بيتون	العراب	ماريو بوزو
زوربا	نيكوس كازنتزاكي	الشوارع العارية	فاسكو براتوليني
انا وهو	البرتو مورافيا	الجحيم	هنري باربوس
الانتباه	البرتو مورافيا	ماريانا	لوركا
مدام بوفاري	غوستاف فلوبير	هيروشيما حبيبي	مارغريت دورا
السفير	موريس ويست	نساء طراودة	جان بول سارتر
قصة حب	اريك سيفال	تمت اللعبة	جان بول سارتر
الموت حبا	بيار دوشين	مسرحيات سارتر	» »
الموت السعيد	البير كامو	الغثيان	» »
		دروب الحرية ١/٣	» »